مَذهبُ القوّة في أدبِ إقبال

• د. أحمد ماهر البقري •

يصدر إقبال في نداء القوة عن روح القرآن الذي تشرب معانيه منذ الصغر، ووجد حاجة المسلمين إلى القوة في صراعهم مع الاستعمار الغشوم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الميلادي العشرين.

والقوة في الإسلام لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين، فهي لذلك لا تجنح إلى ظلم ذلك ﴿أن القوة لله جميعاً﴾(١) وتأمل قوله تعالى ﴿إن الله هو الرازق ذو القوة المتين﴾(٢) توجيه للمسلم. فيما نرى ــ أن يكون رزقه بقوة السعي، وقوة الخُلق فيه، وعلى رأس ذلك الخُلق الأمانة كما في قوله تعالى ﴿إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾(٣).

ورسالة الإسلام قوة، فصاحب الرسالة له من الله العون والقوة ولهذا يكتب له النصر، يقول الله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾(٤)، ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾(٥).

ويقول جل شأنه ﴿وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾(٦).

ويتضمن أدب محمد إقبال «قواعد وآراء حول القوة وهل هي قوة الفرد أو قوة الجماعة أو قوة الأخلاق أو أنها الاستقلال الذي يتحلل من التقاليد فلا يعرفها أم هي الحرية التي لا تضيق بها القيود»(٧).

إن القوة خلق، والخلق لا يتجزأ سواء أكان على مستوى الفرد أم مستوى الجماعة. وهكذا نرى الدعوة إلى القوة عند إقبال يتجه بها إلى الشباب بخاصة، ويرى في نفسه الريادة فيقول داعياً الله «أحي قلوب الشباب الإسلامي، واجعلها خفاقة حساسة متوجعة، وارزقهم يارب حبي وعاطفتي وفراستي وحكمتي»(٨) ثم يقول:

«إن فطرتي التي فطرتني عليها مرآة ينعكس فيها اتجاهات العصر، ومرتع يرتع فيه غزلان الأفكار والخواطر، وإن قلبي ساحة يتجدد فيها معارك وحروب بين جيوش الظن والتخمين، وبين ثبات العقيدة واليقين، هذه هي ثروتي التي أعتز بها في فقري وأدعوك يا رب أن تقسمها في الشباب الإسلامي وتملكهم إياها فتصادف محلها، وتصل إلى من هو أحق بها، وأهلها»(٩).

ويقول في الرزق الحلال، والكدح إلى الله: «إنما تتولد الحكمة والعلم من خبز الحلال، والعشق والرقة كذلك من رزق الحلال»(١٠).

ويقول في ديوانه «بال جبريل»

وكسب المال للمخلوق حق ولكن لا تبع شرفاً بمال(١١)

ويقول مشيراً إلى القوى الكامنة في نفس الإنسان، حاثاً على السعي، فهو أحد وجوه التفرقة بين موت وحياة:

إن حقيقة الإنسان من جسم وروح أي ظاهر وباطن، وهو من ناحية المادة والجسم أهون من البعوض الضعيفة، أمّا باطنه فهو محيط بسبع سموات»(١٢) «كن عبداً مؤمناً، وامض في الأرض ساعياً كالطبور، ولا تعش كلًّا على غيرك كالجنازة التي تحمل على الأعناق»(١٣).

ويقول في «أسرار خودي» عاقداً محاورة بين الفحم والماس، وينتصر الماس لمعدنه مع أنهما في المنشأ صنوان «إن التراب الأغبر إذا نضج فهو جوهر» ويستأنف قوله على لسان الماس للفحم: «وأنا ما زلت أجالد ما حولي حتى أنضج الجلادُ نفسي فانقلبت صلباً كالحجر، مضيئاً كالنجم، وامتلأ صدري بهذه التجليات ... فكل من جاهد في الحياة صبوراً يملأ العالمين نوراً»(١٤).

وفي محاورة بين فرخ الصقر وسمكة صغيرة يقول إقبال في ديوانه «بيام مشرق»: «أنا الصقر فمالي وللأرض؟ إن الصحارى — وهي بحار — تحت أجنحتنا، دع الماء وتعوّد سعة الهواء، حكمة لا تدركها إلا العين البصيرة»(١٥).

ويعرض إقبال لقصة شاب من مرو ذهب إلى علي الهجويري (المتوفي بلاهور سنة ٤٦٥هـ) يشكو له الأعداء الفجار وقد أحاطوا به فيقول:

«إن الحجر الذي يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار ينقلب زجاجة غايتها الانكسار، ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه فقد أسلم لقاطع الطريق روحه. حتام تعد نفسك طيناً وماء؟ أخرج من طينتك شعلة الطور ناراً وضياء...» ثم يقول: «تفكَّر في الذاتية وكن رجل الجلاد السبَّاق إلى الغايات، كن رجل الحق المليء بالآيات..»(١٦).

وتأمل كيف يسوق إقبال المعنى وضده لتظهر القوة إنه يريد ذلك الذي:

«تصنع الجوهر من أدنى زجاج»(١٧).

وقد عاش إقبال حياة الألم الدافع إلى القوة، الداعي إلى التأمل «إذ قال لي حكيم إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك»(١٨) كما يقول إقبال

ويقول أيضاً «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحد، ولم أستعن بأحد في حل مشاكلي، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرة واحدة فسقطت عن مقامي، وعوقبت بالهوان مائتي مرة»(١٩).

وأدب القوة عند إقبال يستهدف تربية الإنسان الذي يصارع القوى الغاشمة ولا يؤثر السلامة ذلك أنه «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته، وعرف قيمة نفسه لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه»(٢٠).

وقد عز وجود هذا المؤمن ولهذا كثر مالا يرضاه الناس إذ يقول من لا أخلاق له «در مع الدهر حيث دار وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه، وأنا أقول: إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفيء إلى أمر الله»(٢١).

ويرى إقبال أن «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد»(٢٢).

ولأمر لا تخفى دلالته على نفسية إقبال وفكره يستهل إقبال ديوانه «أسرار خودى» بقصيدة تروي ما قاله جلال الدين الرومي (٦٠٤ ــ ٦٧٢هـ) في بعض مقطوعاته (رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً كأنه يبحث عن شيء. قلت له: يا سيدي، تبحث عن ماذا؟

قال: قد مللت معاشرة السباع والدواب، وضقت بها ذرعاً وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عيني برجولته وشخصيته ويروح نفسي.

قلت: لقد غرّتك نفسك يا هذا فخرجت تقتنص العنقاء، بالله، لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي، وأنضيت ركابي، ونقّبتُ في البلاد فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً.

قال الشيخ: إليك عني أيها الرجل، فأحب شيء إلى نفسي أعزه وجوداً، وأبعده منالاً(٢٣) ومحمد إقبال مثال لهذا الوجود العزيز، ذلك إحساسه حين يقول «أنا غريب في الشرق والغرب، أعيش وحدي وأغنّي وحدي، وقد أتحدث إلى نفسي وأخفف من أشجاني وآلامي»(٢٤).

ويقول متمثلاً: «سألني ربي: هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت: لا يا ربي. قال: فحطمه ولا تبالي»(٢٥).

ورسالته إنما هي رسالة الحياة في الإسلام، بل هكذا «المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريها النسخ والتبديل»(٢٦).

ويقول إقبال: «لقد أمرتني يا رسول الله أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح، ولكن هؤلاء القساة يقترحون عليّ أن أنوح الأموات في الشعر، وأنظم تاريخ الوفاة فأين هذا مما أمرتني به؟»(٢٧).

والأنين الشعري عند إقبال مبعثه الألم، وما يحسه من جمال الصراع «يكمن في أنه نضال الإنسان واستماتته من أجل بلوغ غاياته النظيفة.. وروعة الألم ليست مجرد أحاسيس مريضة أو انهيار نفسي.. وإنما الألم في نظره قوة خالقه، وجلاء لمعدن الإنسان الأصيل وإرهاف لمشاعره ووجدانه، والقلق لدى إقبال ليس دافعاً من دوافع اليأس والملل والموت بل نشوة فكرية وبحث عن الحقيقة الخالدة..

أما عشقه فهو عاطفة صوفية جياشة لا ارتباط بينها وبين نزوات الجسد الضالة»(٢٨) بل كان مما أخذه إقبال على عصره «إن أنظار الشرق والغرب مسحورة من محاسن الغرب: فقد صارت فتيات الغرب العاريات أكثر جاذبية من حور الجنة في نظرهم»(٢٩).

ويقول: «أسفا للشعراء والرسامين وكتّاب القصة في بلادنا، لقد استولت على أعصابهم المرأة»(٣٠).

ولهذا كان تناول إقبال للمرأة مشيداً لها بقيم البطولة والقوة، خلف غلالة من الحياء يكنّي ولا يصرح غالباً كقوله في فاطمة بنت عبد الله شهيدة طرابلس ما ترجمته:

في ثنايا الوديان تختبيء الغز لان خلف الشعاب مختفيات
والبروق اللوامع استترت خلف ضباب السحائب المطرات(٣١)

ويقول إقبال في تبديد الخوف ونبذ الرذائل وأحقها للدول الظلم:

إني رأيت الخوف في الد   نيا عدواً للعمل
هو مطفىء نور الر   جاء وسالب كنز الأمل(٣٢)

ثم يقول:

واليأس والجبن المذ   ل وكل غش والتواء
تلك الرذائل في شعو   ب الأرض أبواب الفناء
المؤمنون لهم من المولى   أمان الأولياء
بلغوا الكمال فهم عن الد   نيا العريضة أغنياء(٣٣)

وينظم إقبال قصيدة قصصية تذكرنا بالمثل القديم «جزاء سنمار» غير أنه لا يدع الطغيان يسري في الرعية، فشرع الله بالمرصاد للحاكم والمحكوم، يقول إقبال في ذلك السلطان الذي بتر يد مهندس بنى له قصراً فحكم القاضي ببتر يد السلطان:

يد بنت لك في أوج العلا شرفا   جازيت صاحبها بتراً وحرمانا
فما يفيدك بنيان القصور إذا   هدمت من شيم المعروف بنيانا؟
وكيف يسترك المنسوج من حلل   إذا غدوت من الأخلاق عريانا؟

ويسلم السلطان يده لتُقطع امتثالاً لشريعة العدل، ولكن المهندس يتمثل لخُلق العفو والإحسان، فماذا قال السلطان وماذا قال الفتى المهندس؟

فقال يا قاضي الإسلام تلك يدي   أسلمتها لقضاء الله إذعانا
هب الفتى وأزاح الصمت عن فمه   وضمد الجرح بالمعروف جذلانا
وقال إن الذي بالعدل يأمرنا   ما زال يأمرنا بالبر غفرانا(٣٤)

إنها قوة العدل في بناء الأمم إذا تزعزعت تقوّض البناء.

وتأمل ما يسوقه إقبال من قصة البعوضة التي سهرت ليلها وكان أجرها عند الفجر قطرة دم امتصت من جسم نائم.. إنها تشكو إقطاعياً حريصاً:

حنين البعوضة أضحى أنينا   حزين الصدى يستثير العبر
وليس سوى قطرة من دم   ظفرت بها بعد طول السهر
وهذا الحريص الذي لم يكافح   قد امتص ظلما دماء البشر(٣٥)

ويذكر إقبال أن في حرية الإرادة قوة الملكات لتشق طريقها نحو مستقبل زاهر فيقول: «إن المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه، ولا يُعتمد على استحسانه واستهجانه، وإنما الميزان هو الرجل الحر، والشعب الحر.. فإن الأحرار هم وحدهم أصحاب الفراسة الصادقة والبصيرة النافذة، وإن رجل الساعة هو الذي شق بهمته الطريق إلى المستقبل ولم يقتنع بالحاضر»(٣٦).

وفي قوة العقيدة والتوحيد انطلاق الملكات من أسر التبعية للعدو بخاصة، يقول إقبال: «لقد أكرمت يارب رعاة الإبل وسكان الوبر ــ العرب ــ بنعم فريدة، لم يشركهم فيها أحد، لقد أفردتهم بعلم جديد وإيمان جديد وشعار جديد هو **أذان الصبح**، فقد أفلست الأمم في العلم الصحيح، والإيمان القوي، والذوق الرفيع والدعوة الصارخة السافرة إلى **التوحيد** على حين غفلة من الناس، أما العرب فقد فاجأوا العالم بصحة علمهم وجدة إيمانهم، وسلامة ذوقهم، ودويِّ أذانهم في السكون المخيم على العالم»، (٣٧) ويقول فيما شاب العقيدة والعلم من زيف:

> «إن المسلم وإن كان لا يزال متحمسا في التوحيد فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنيين وشعائرها إن الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد لا يزال كل ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي، لقد طغت الخرافات على الحقيقة ...»(٣٨).

ويحذر إقبال من خطورة الخضوع لسيطرة (أبي لهب) لكيلا تنطفيء شعلة (لا إله إلا الله) في نفس المسلم فيقول في شيء من تشاؤم في ديوانه «جاويد نامة»: «إن المصباح الذي أناره محمد تألب عليه مائه «أبي لهب» يطفئونه. إننا لا نزال نسمع صوت (لا إله إلا الله) ولكن صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب، وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم»(٣٩).

ويقارن إقبال حال الشرق بالغرب، ويرى أن الغرب قوي بوسائله العلمية والحربية غير أن وقدة الإيمان فيه ضعيفة «أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد، ولكن يعوزه الموجه والقيادة الرشيدة، وأما الغرب فقد أتخم بالقوة والوسائل ولكن حرم لذة الإيمان وبرد اليقين»(٤٠).

ويتجه إقبال إلى منشأ الإسلام الأول ليخاطب في قصيدته الملك عبد العزيز ابن سعود مؤسس المملكة العربية السعودية، (رحمهما الله): قائلًا:

«اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك، ولا تنسى أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام»(٤١).

ويرفع إقبال راية الجهاد خفّاقة حماية للحرم الشريف، ورسالة الإسلام فيقول في قصيدة بعنوان «وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين» ما ترجمته:

«إن المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً، اخرجوا روح محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من جسمه، فيصبح قليل الصبر، جزوعاً من الفقر، شديد الخوف من الموت، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنوا(٤٢) بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن» ثم يقول:

«إن في الأفغان غيرة دينية، وعلاجها أن يغفو العالِم الديني من جبالها وسهولها» ويقول ما ترجمته نظماً:

جهاد المؤمنين لهم حياة　　ألا إن الحياة هي الجهاد
عقائدهم سواعد ناطقات　　وبالأعمال يثبت الاعتقاد
وخوف الموت للأحياء قبر　　وخوف الله للأحرار زاد(٤٤)

وهكذا دل خلق إقبال وأدبه على أنه «شاعر القوة في الإسلام» كما يقول الشاعر محمد عبد الغني حسن(٤٥) مهدياً إليه قصيدة بعنوان «نداء القوة في الإسلام» يقول فيها:

أيها المسلم القوي النضال　　أيها المسلم الرفيع المثال
أخا الفضل يا أبا إقبال　　لك منا تحية الإسلام
الشعرُ قبلك النوارا　　يرشف الراح من ثغور العذارى

وفيها:-

خالعاً في رحابهن العِذارا　　معرضاً عن ملامة اللوام

ويختمها في شعر إقبال:

هو شعر الحياة ينبض عزما　　هو شعر الإشراق ينطق حكماً
هو شعر الإسلام يقطر سلماً　　هو شعر على المدى المترامي

• الهوامش •

(١) البقرة ١٦٥.
(٢) الذاريات ٥٨.
(٣) القصص ٢٦.
(٤) التكوير ١٩، ٢٠.
(٥) المجادلة ٢١.
(٦) الأحزاب ٢٥.
(٧) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي : ترجمة محمد حسن الأعظمي وآخر ص ١٠. ط ــ ١٤٠٢هـ.
(٨) ،(٩) روائع إقبال : أبو الحسن على الحسنى الندوي ص ١٠٠، ص ١٠١. ط ــ دار الفكر بدمشق ١٣٧٩هـ ١٩٦٠.
(١٠) الأعلام الخمسة ص ١٠٦.
(١١) الأعلام الخمسة ص ٦٣.
(١٢) الأعلام الخمسة ص ١٠٣.
(١٣) الأعلام الخمسة ص ١٠٥.
(١٤) الدكتور عبد الوهاب عزام في مقاله «عود إلى محمد إقبال» مجلة الرسالة ــ ٢٧ ربيع أول سنة ١٣٥٣هـ، ٩ يوليو ١٩٣٤م ــ صفحة ١١٤٩.
(١٥) د. عبد الوهاب عزام في مقاله «صفحات من الشعر الهندي» الرسالة العدد الأول ١٨ رمضان ١٣٥١هـ، ١٥ يناير ١٩٣٣م. صفحة ٢١.
(١٦) الرسالة ص ١١٤٨.
(١٧) الأعلام الخمسة ص ٤٠.
(١٨) روائع إقبال ص ٣٣
(١٩) روائع إقبال ص ١٢٥.
(٢٠) روائع إقبال ص ٥٧.

(٢١) روائع إقبال ص ٥٦.
(٢٢) روائع إقبال ص ٥٧.
(٢٣) روائع إقبال ص ٥١.
(٢٤) روائع إقبال ص ١٢٥.
(٢٥) روائع إقبال ص ٥٦.
(٢٦) روائع إقبال ص ٥٥.
(٢٧) روائع إقبال ص ١٢٦.
(٢٨) الدكتور نجيب الكيلاني في مقاله «محمد إقبال شاعر البناء والنهضة» الرسالة ــ العدد ١١١٠، ٢٠ من ذي الحجة ١٣٨٤هـ، ٢٢ من أبريل ١٩٦٥م.
(٢٩) الأعلام الخمسة ص ١٠٣.
(٣٠) روائع إقبال ص ٤٧.
(٣١) الأعلام الخمسة ص ٨٥.
(٣٢) الأعلام الخمسة ص ٨٢.
(٣٣) الأعلام الخمسة ص ٨٣.
(٣٤) الأعلام الخمسة ص ٥٠.
(٣٥) الأعلام الخمسة ص ٣٩٨.
(٣٦) روائع إقبال ص ٩٢.
(٣٧) من ديوان «بال جبريل». روائع إقبال ص ٩٦.
(٣٨) روائع إقبال ص ٩٩.
(٣٩) روائع إقبال ص ١٠٩.
(٤٠) روائع إقبال ص ٩٠.
(٤١) روائع إقبال ص ١٢٦.
(٤٢) في النص المعرب «تتمكنون» والصواب ما أثبتنا.
(٤٣) روائع إقبال ص ٦٧.
(٤٤) عن مقال: «محمد إقبال شاعر مسلم وفيلسوف مصلح» لكاتبه عبد المنعم السكري ــ الرسالة العدد ١١٠٩ ــ ١٣ ذي الحجة ١٣٨٤هـ.
(٤٥) عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
(٤٦) الرسالة ــ العدد ١١٠٩. ص ٣٢. الخميس ١٣ ذي الحجة ١٣٨٤هـ ــ ١٥ أبريل ١٩٦٥م.